حوار

مع فاروق غندور

هو ابن خالته. يصغره بأربعة أعوام. لا يشبهه أبداً، غير أنّك لو جلستَ إليه ساعتين أو يومين لهالك الشبه بينهما، ولتخيّلتَ غسّان كنفاني أمامك بشراً سوياً اكتسحه الشيبُ وتمطّتْ فوق جبينه أهوالُ الفجائع.

يحدّثك عن غسّان ببساطة، كما لو أنّه يفعل ذلك كل يوم أكثرَ من مرّة. وتخال أنّ غسّان كنفاني قد أضحى لديه ذكرى يستلّها أو يكتم أنفاسها أنّى شاء. غير أنك لا تلبث أن تحسّ بخطأ تقديرك حين يتحوّل الحديث إلى موت غسّان. فالحزن يجتاح عينيْه، والدمعة تختلج في حنجرته، وترى آلام الفجيعة تفور في صدره حين يصرخ: «كم مرّةٍ قلتُ لهم: تنجبون مليون مقاتل، لكنّكم لن تنجبوا غسّاناً آخر. كم مرّةٍ قلت لهم: أحموه كحدقات عيونكم!»

فاروق غندور اسمٌ دافئ، يحبّه الأطفال والفقراء والمعاقون، ويحبّه كلّ من يُعلي من قيم الوفاء لغسّان كنفاني ولقيمه.

غسّان ابن خالتي ويصغرني بأربعة أعوام. وكانت علاقتي به وبعائلته علاقة حميمة. وُلِد في عكّا، لكن أباه كان محامياً يعمل في يافا، إلّا أن عائلة غسّان كانت تقضي إجازات الربيع والصيف في عكّا، فتقيم في بيتنا أو في بيت جدّي ويلعب أطفال العائلتيْن معاً.

في طفولته كان غسّان ولداً منطوياً، سكوتاً حين «يتشيطن» الأطفال، ناعماً، أبيض، أشقر، جميلاً، ذا عينيْن كبيرتيْن. صحيح أنّه كان يشترك في ألعاب الأطفال، غير أن لَعِبَه لم يكن فيه ما يدلّ على الشيطنة و«العفرتة». ولعلّ أبلغ تعبير عن سلوكه آنذاك كلمة «سَلْبود» التي نتداولها فيما بيننا، نحنُ أهالي فلسطين، وتعني: المرء الذي يتصرّف «على السكت» دون أن يُشعر أيّاً كان بأعماله.

قبيل خروج غسّان وعائلته من فلسطين توجّه الجميع إلى عكّا. وذهب غسّان إلى المدرسة فترة قصيرة. وفي ٢٥ نيسان ١٩٤٨ هاجم الصهاينة عكّا. وكنّا مختبئين معاً. وفي اليوم التالي هربنا كسائر الناس. جاء أعمام غسّان بـ «كميون» (شاحنة) وقالوا له «احزمْ أمتعتك وخُذ عائلتك». وكان أبو غسّان مثالنا الأعلى، لما اتّصف به من تقدميّة وانفتاح وعِلم وعصاميّة؛ فقد كان يَدرس المحاماة في القدس ويعمل ـ في الوقت ذاته ـ كي يوفّر مالاً لدراسته لأنّ أباه لم يكن يملك مالاً يفيض عن حاجات عائلته الكبيرة.

حين جاء «الكميون»، تدفّقت العائلات إليه، ونجحت عائلة غسّان في أن تجد متّسعاً لها فيه. وخرجتْ من فلسطين آملةً أن تلحق بها عائلتُنا في اليوم التالي. مكثنا في النبطية ومكثت عائلة غسّان في الغازيّة في جنوبي لبنان. كان الجميع يعتقد أنّ هجرتنا ستنقضي بعد أيّام قليلة، ولهذا اخترنا الجنوب اللبناني كي نكون على مقربة من فلسطين. وهكذا فقد أضعنا ـ عائلة غسّان وعائلتنا ـ بعضنا البعض يومين أو يزيد قبل أن نلتقي من جديد.

* كيف كانت حياة غسّان وعائلته في الغازيّة؟

ـ مكثت عائلة غسّان هناك حوالي الشهر. واستأجرتْ بيتاً في أعلى التلّة التي تقع عليها القرية. ولم يكن لديها أيُّ مال؛ فأبو غسّان كان قد وضع كلَّ ماله في البناء في فلسطين، بل إنّه لم يسكن في بيته الذي أُنجز بناؤه في يافا.

* بعدها ذهبت العائلة إلى سوريا؟

ـ كان من عادة عائلة غسّان أن تقضي فصل الصيف من كلّ سنة في منطقة الزبداني ـ شأن كثير من العائلات الفلسطينيّة الأخرى. فذهبت عائلة غسّان بالقطار إلى حلب ذات يوم شديد البرد، ومنها ارتحلت إلى الزبداني.

ولمّا وجدت العائلة أنّ مسألة البعد عن الوطن مسألة طويلة، نزلت إلى الشام من أجل العمل. وعمل أفرادها في مهن لا تتلاءم ومركزَ الأب الاجتماعي السابق.

كان غسّان في حوالي الثانية عشرة من عمره آنذاك؛ وكان أخوه «غازي» يكبره بعامين، وأخته «فايزة» تكبره بستّة أعوام. وبالمناسبة كان لـ «فايزة» أثر عظيم في غسّان، وأنت تعلم أنّ ابنتها

«لميس» استشهدت مع غسَّان في الحادث نفسه. وقد أكملت «فايزة» دراستها، فأنجزت البكالوريا، ثمَّ عملت مدرّسةً في إحدى القرى السوريّة، وصارت تنفق المال على عائلتها.

غسَّان في الخمسينات. وقد كتب على قفا الصورة ما يلي:

عزيزتي فائزة.. بهذه النظرة الحربيّة أستقبل الحياة!.. وبها أُحطّم أيضاً كُلَّ حجر عثرة يعترض طريقي التي رسمتُها لنفسي مُذْ بدأتُ أتدرّج في حياة الشباب...

وكان غسَّان وغازي يذهبان إلى المدارس الرسميّة في الشام، ويقومان ـ في أوقات فراغهما ـ بأعمال تعينُهما على الارتزاق. ومنها مهنة «العرضحالجي»، وهي مهنة لا تزال تُمارَس حتّى اليوم، يقوم أحد «المتعلِّمين» بموجبها بالجلوس أمام باب المحكمة ومساعدة الناس الأُميِّين في كتابة طلبات رسميّة أو مراسلات شخصيّة أو غير ذلك. وذات يوم اشترى غازي (أو استأجر) آلةً كاتبةً صغيرة؛ وكان قد تعلّم في يافا استعمال مثل هذه الآلة. وصار غازي وغسَّان يذهبان إلى الشام، الأوَّل يحمل الآلة الكاتبة، والثاني يحمل كرسيّاً وطاولة صغيريْن، وراحا يكتبان للناس الأُمّيِّين طلباتهم لقاءَ خمسة قروش أو تزيد قليلاً.

* هل تذكر شيئاً عن هذه الفترة؟

ـ أذكر حادثة طريفة وقعتْ لغسَّان وغازي آنذاك. فقد جاء أحد الرجال وطلب من «العرضحالجيّين» أن يكتبوا له عنوان أهله باللغة الإنكليزيّة. فعجز الجميع عن القيام بذلك. إذّاك انبرى غسَّان وغازي وكتبا له ما يريد. فسُرّ الرجل سروراً عظيماً، ونقدهما نصفَ ليرة سوريّة. فما كان من غسَّان وغازي إلّا أن حملا الآلة الكاتبة والكرسيّ والطاولة ـ ومن غير أن يكلِّم واحدهما الآخر ـ هرعا إلى البيت! لقد كفتهما نصفُ الليرة تلك مشقّةَ العمل يوماً كاملاً!

* ما كانت ميولُ غسَّان الدراسية؟

ـ كان غسَّان يحبّ الأدب ويكره العلوم. أذكر أنّ أباه طلب منّي أن أُعين «غسَّان» في مادة الحساب ـ وكنتُ جيّداً فيها. وقد ذكّرتُ «غسَّان» بذلك فيما بعد، فأنكر، لكنّي أكّدت على ذلك مراراً وتكراراً.

بدأ غسان يكتب وهو بعد في الصفوف التكميليّة. وما لبث أن اشترك في برنامج إذاعيّ أعدّتهُ إذاعةُ دمشق بعنوان «الطلبة»، فكتب المسرحيّات الموجّهة إلى الطلّاب وقدّمها أحياناً وأذاعها أحياناً أخرى.

وفي الثامنة عشرة حصل غسَّان على شهادة البكالوريا. وفي تلك الفترة (١٩٥٤ أو ١٩٥٥) أقامت الدولة السوريّة معرض دمشق الدولي الأوّل. كنت آنذاك في زيارة للشام، فطلب منّي غسَّان أن أرافقه إلى المعرض لرؤية جناح فلسطين. وهناك رأيت خرائط لفلسطين، ولوحات فنّيّة، وتعريفات جغرافيّة، ونِسَب الأراضي التي حازها العرب وتلك التي حازها اليهود، وارتفاعَ معدّلات الهجرة اليهوديّة، وغير ذلك. فسألته: «من أعدّ هذا الجناح؟» أجاب: «أنا». قلت «وحدك»؟. قال «وحدي»!! فقلت لنفسي «أنْ يقوم شاب في الثامنة عشرة من العمر بتجهيز جناح عن بلدٍ ما، فيرسم صوره ويورد إحصائيّات عنه، لهو أمرٌ مثيرٌ للإعجاب والدهشة». وحصل أن زار سامي الصلح، رئيس وزراء لبنان، معرض دمشق الدولي، فوقف أمام جناح فلسطين وراح يتحدَّث إلى الفتى غسَّان كنفاني. ولعلّك ستعثر بين أوراق آني [زوجة غسَّان] على صورة تمثِّل الاثنين أمام الجناح.

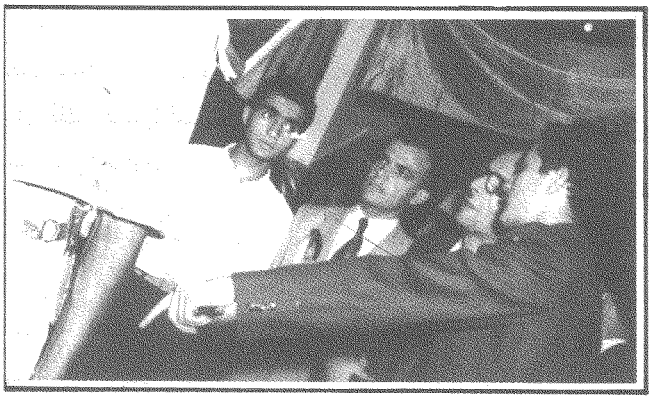

معرض دمشق الدولي الأول (١٩٥٥): غسَّان مسؤولاً عن جناح فلسطين

* ما كان هدف الجناح؟

ـ لم يُحدثني غسان في هذا الموضوع. وربّما لأنّ الجواب واضح: ليس لفلسطين منتوجات تعرضها. ليس ثمّة ما نقوم به إلاّ عرض قضيّتنا أمام الملأ. ولا تنسَ أنّنا كنّا لا نزال آنذاك «لاجئين» في عُرف العالم.

* عام ١٩٥٥ انتسب غسّان إلى جامعة دمشق.

ـ نعم. لكنّي أودّ أن أقول قبل التطرّق إلى هذا إنّ «غسّان» قد نال ٥٤ أو ٥٦ من أصل ٦٠ علامةً على مادة الأدب العربي!

والتحق غسّان بعد ذلك في دائرة الأدب العربي في جامعة دمشق، ثمّ عُيّن مدرّساً في الكويت. وكانت أخته «فايزة» منذ عام ١٩٥١ قد عُيّنت مدرّسة هناك، وأمّا أخوه فقد عُيّن سكرتيراً في وزارة التربيّة في الكويت.

* وفي هذا العام انتسب غسّان إلى «حركة القوميّين العرب».

ـ ربّما تمّ هذا الانتساب عام ١٩٥٤، وربّما قبل ذلك؛ فقد كان غسّان من روّاد الحركة. وكان، أثناء تدريسه في الكويت، يؤدّي نشاطات ذات علاقة بـ«الحركة».

وفي عام ١٩٥٨، حدث انقلاب عبد الكريم قاسم في العراق، فأطاح بالملكيّة وأتى بالشيوعيّين، ووقعت مجازر كثيرة في صفوف القوميّين. وكان غسّان ذات يوم من تلك الأيّام قادماً من الكويت، فاجتمع في بغداد بمجموعات من القوميّين العرب.

وحين عاد إلى الكويت شرع في كتابة مقالات لعلّها الأكثر استشرافاً في الصحافة العربيّة بصدد الوضع في العراق؛ فقد كان أوّل كاتب عربي يهاجم الوضع «الجديد» في العراق، بل إنّ عبد الناصر قد كان آنذاك مؤيِّداً للثورة على أساس قضائها على الملكيّة وغير ذلك. وأمّا «غسّان» فقد صرّح بأنّ الثورة تنحرف عن اتجاهها القومي العربي وتميل إلى الشيوعيّة. وكان يكتب مقالاته تلك باسم مستعار هو «أبو العزّ». تصوّرْ أنّ أخته «فايزة» ـ بيت أسراره ـ لم تعلمْ شيئاً من هذا، وحين علمتْ بعد سنين حزنت حزناً شديداً. وفي تلك الفترة استهوت غسّان فكرةُ الأسماء المستعارة وراح يستخدمها مراراً.

ولقد أخبرني أنّه كان ذات يوم يوزّع هو ورفاقه مناشير سياسيّة في الكويت ضدّ حكم عبد الكريم قاسم على الأرجح. فلاحقتهم الشرطة بالسيّارة. ووصلوا إلى «دُوّار». وصارت الشرطة تدور وهم يدورون؛ وظلّوا على هذه الحال حتّى انقضت عشر دورات. وفي النهاية، انسلّ غسّان ورفاقه في أحد الزواريب ولاذوا بالفرار!

* في الكويت اكتشف غسّان مرضه بالسُّكّري.

ـ كان في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من العمر حين اكتشف ذلك. وخضع لفحوصات طبيّة في الكويت، ثمّ قصد الشام في الصيف. أذكر أنّنا كنّا نمشي في «المرجة» حين قال لي: «أتعرف يا فاروق ماذا حدث عليّ»؟ طبعاً كان أهله قد أخبروني أنّه مصاب بالسُّكّري، لكنّي لم أُرد أن أخبره بذلك. قلت: «لا». قال «معي سكّري، وبكميّات كبيرة». حاولتُ أن أُخفّف عنه بالقول إنّ هذا أمر طبيعي وأنّ الكثير من الناس يعانون منه. قال: «أرجوك ألاّ تخبر أهلي بذلك»، فقد كان يحبّ أمّه حبّاً عظيماً. فقلت: «لكنّهم بلا شك يعلمون بوضعك الصحّي». وأيّاً يكن الأمر فقد كان غسّان يتفادى إخبار أهله، وكان هؤلاء يتفادون إخباره كذلك، حرصاً من كلّ طرف على الآخر.

وتعايش غسّان مع السُّكّري منذ ذلك الوقت. على أنّ مرضه قد أصابه بهاجس الموت اليوميّ. وكان، لشدّة عمله، ينسى أن يتناول الطعام في بعض الأحيان أو ينسى أن يضرب نفسه إبرة «الأنسولين»، فيُصاب بالغيبوبة («الكوما»). ولطالما نقله أصحابُه إلى المستشفى. بعد زواجه من آني، تنظّمت حياة غسّان تنظيماً طفيفاً.

وأذكر أنّني دعوت غسّان وزوجته إلى الغداء بعد زواجي بفترة قصيرة. ولمّا كنت موظّفاً في مصرف من المصارف ولا أغادره قبل الساعة الثانية ظهراً، فقد اضطرّ غسّان لانتظاري في منزلي. وما إن وصلت إلى المنزل حتّى رأيت سيّارة إسعاف على وشك أن تقلّ «غسّان» إلى مستشفى البربير. وقد قال له الطبيب هناك إنّه يلزمه أن يقوم بتحاليل طبيّة، وهذا ما دفع بغسّان إلى مقاطعة طبيبه قائلاً إنّه يعرف كلّ ذلك. وما هي إلاّ ساعات قليلة حتّى هرب غسّان من المستشفى!

* هل كان غسّان يخشى من الزواج بسبب إصابته بالسُّكّري؟

ـ لغسّان قصّة خاصّة، ولا بأس من أن أرويها لك، لأنّ آني تعرفها وغير آني يعرفها كذلك. كان يحبّ امرأة في فترة الخمسينات. ولا ندري ما حدث؛ إمّا أنّ «النصيب» لم يحالفه وإمّا أنّ أهلها اعترضوا على الزواج لعلمهم بإصابته بالسُّكّري.

* نعود إلى علاقته بحركة القوميّين العرب في أواخر الخمسينات.

ـ كانت الحركة تُصدر آنذاك مجلّة الحريّة التي أشرف عليها محسن إبراهيم. وكان غسّان يأتي في الصيف ويعمل في التحرير والإخراج. ويبدو أنّ «الحركة» قد أقرّت في عام ١٩٥٩ ضرورة أن يترك غسّان الكويت ويأتي إلى بيروت. فجاء إلى هنا بجواز سفر

عُماني، وكان يلبس كوفيّة وعقالاً! واستمرَّ يحيا في بيروت منذ ذلك الوقت (١٩٦٠) حتّى تاريخ استشهاده.

* هل تذكر شيئاً عن إنتاجه الأدبي آنذاك؟

- كان غسَّان يُراسل مجلّة **الآداب** منذ ذلك الوقت. والتقيتُ ذات يوم بالأستاذ منير منيمنة في «جمعية متخرّجي المقاصد» فسألني ما إذا كنتُ على علاقة قرابة بغسَّان كنفاني. فضحكت وسألته عن السبب. قال: «لأنّك تُشبهه، ولأنّي قرأت له مقالاً شيِّقاً في **الآداب**».

وأذكر أنَّ ثمّة مسابقة جرت على مستوى العالم العربي لكتابة القصّة. فنال غسَّان الجائزة الأولى عن قصّة «القميص المسروق»، وكان مجموع علاماته ٧٥٨ أو ٧٨٠، بينما حازت الجائزة الثانية قصّةٌ لكاتب آخر لم تتعدّ العلاماتُ التي نالها الخمسمئة! وكان ذلك عام ١٩٥٦ تقريباً.

في تلك الفترة اكتشف غسَّان أنّه قصّاص بالدرجة الأولى، رغم كونه قد كتب شعراً ومارس الرسم آنذاك. وهذا ما ذَكَره في **القنديل الصغير** الذي أهداه إلى «لميس» (ابنة أخته فايزة)، إذْ قال: إنّني كاتب قصّة، وسوف أكتب لك قصّة تكبر معك كلّما كبرتِ.

وكان غسَّان يراسل **الرأي** الناطقة بلسان حركة القوميّين العرب في دمشق، فيرسل رسوماً كاريكاتوريّة ومقالات وقصائد.

* عام ١٩٦١ اشترك غسّان في تحرير جريدة **المحرّر**.

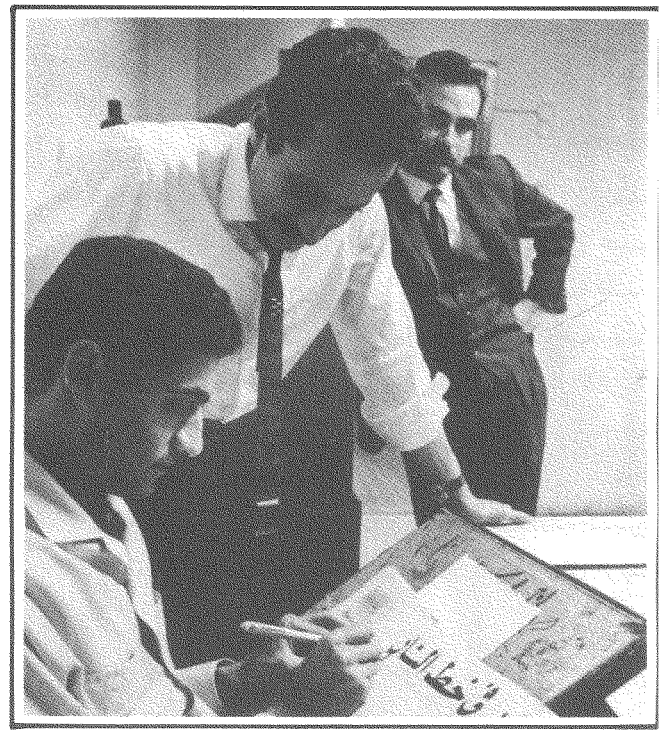

مع فاروق غندور، وخطّاط جريدة المحرّر

- بل إنَّ المرحوم «هشام أبو ظهر» طلب منه التفرّغ للجريدة، فنال غسَّان موافقة «الحركة» كما يبدو. وما لبث أن رأس تحرير **المحرّر**، وربّما كان أصغر رئيس تحرير جريدة في تلك الفترة. واستمرَّ في عمله حتّى بُعيد النكسة عام ١٩٦٧؛ فقد توقّفت الجريدة عن الصدور، وربّما كان لانقطاع المساعدات العربيّة المصريّة أثرٌ في توقّفها.

* **ومجلّة الحوادث؟**

- كان يصوُغ مقالها الافتتاحي باسم مستعار هو «ربيع مطر»، عقب اجتماع هيئة التحرير في المجلّة.

ثمَّ طلبته دار «الصيَّاد»، ورأس تحرير ملحق **الأنوار**، فارتفع مستوى الجريدة ارتفاعاً ملحوظاً.

وأصدر آنذاك مجلّة **فلسطين** التي تبقى إلى اليوم مرجعاً وثائقيّاً هامّاً عن قضيّة فلسطين. وكانت تُوزّع مجّاناً، وتدعمها تبرُّعاتٌ من أصدقاء حركة القوميّين العرب.

وفي تلك الفترة اشترت «الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين» امتياز مجلّة **الهدف** من زهير عسيران ووضعته باسم غسَّان؛ فرأس تحريرها حتّى يوم استشهاده.

* بعد هذا العرض لمسيرة حياته، هل بإمكانك أن تحدّثنا عن كيفيّة استيحاء غسَّان كنفاني لبعض أحداثها في كتاباته؟

- عندما غادر غسَّان عكّا، طفلاً، في الشاحنة مع أهله، بقيتِ الحادثة في ذاكرته، فكتب قصّة «أرض البرتقال الحزين» يصف فيها الخروج من فلسطين. بل إنَّ قوله في القصّة إنَّ الأب كان يحمل مسدَّساً ويفكّر في إطلاق النار على نفسه يأساً وضيقاً، لهو قول ينطبق على حقيقة تفكير أبي غسَّان آنذاك!

وحين مرض غسَّان بالسُّكّري عام ١٩٥٦ ولازم المستشفى، انبثقت في مخيّلته قصّةٌ من أهمِّ القصص العربيّة، هي «موت سرير رقم ١٢». ولعلّها القصّة الأولى التي تتحدَّث عن إنسان الخليج العربي؛ فبطلها رجل عُماني يعيش في الكويت.

وأمَّا «البومة في غرفة بعيدة» فقصّتها هي التالية: ذات يوم وقفت بومةٌ على سطح بيتنا في عكّا، وراحت تزعق طول الليل. وكما تعلم، فإنَّ البومة دليل شؤم. ولذلك رحنا نرشقها بالحجارة ونطلق النار عليها. وقد أوحت هذه الحادثة لغسَّان بقصّته المذكورة.

وأمَّا «المدخل» الذي كتبه غسَّان في **عن الرجال والبنادق** فمستمدّ هو كذلك من حادثة واقعيّة، حين كان الصليب الأحمر الدولي يقدِّم مساعدات للاجئين، وهو ما شهده غسَّان أثناء إقامته في الشام إبَّان السنين الأولى لهجرته من فلسطين، وكان الطقس شديد البرودة.

وفي القصّة يصف كيف كان الرجال يُشعلون الأوراق في «تنكة» حديديّة يتدفّأون من لهيبها، وكيف كان البعض يمشي حافياً مرتجفاً عاري القدمين، وكيف يوزّع الصليب الأحمر الألعاب على الأطفال ـ ومن جملة الألعاب علبة «تنك» تتضمّن الحسَاء. ولا يذكر طفلُ القصّة من ألعابه سوى العلبة الأخيرة التي كانت أمّه توزّع منها الحساء على أفراد العائلة. وقد حدث أن اتّصل بغسّان أحدُ أصدقائه وعرض عليه جمعَ التبرّعات للاّجئين ـ وكان ذلك في مرحلة لاحقة ـ فانبعثت في رأس غسّان ذكريات اللاجئين في الشام، فكتب «المدخل».

وأمّا رحلته من الكويت إلى دمشق عام ١٩٥٩، بالإضافة إلى أحداث أخرى تتعلّق بتهريب الفلسطينيّين من عمّان إلى الكويت، فقد ألهمته أفضلَ رواياته: **رجال في الشمس**؛ ذلك أنّه عاش تلك التجربة بعمق.

* لكنّه قَلَب تجربته في الرواية.

ـ صحيح. رحلته كانت من الكويت إلى الشام، وأمّا الرواية فتتحدّث عن رحلةٍ من عمّان إلى الكويت. والجدير ذكره أنّ الرواية أنتجت آنذاك جدلاً، فقد ألمعت إلى أنّ الفلسطيني لن يجد حلاًّ لقضيّته خارج أرضه.

وهناك الكثير من قصص غسّان ورواياته مستوحاة من أحداث واقعيّة. غير أنّ «غسّان» كان يتضايق و«ينرفز» كلّما حاول واحدٌ منّا ربطَ شخصيّة من شخصيّات الرواية أو القصّة بشخصيّة حيّة تعيش على أرض الواقع.

* هل استمرّ على هذا الموقف حتّى بعد كتابته **أمّ سعد**؟

ـ **أمّ سعد** حكاية ثانية. أمّ سعد إنسانة حقيقيّة، وهو يقرّ بذلك في مقدّمة الرواية. غير أنّني أتحدّث ههنا عن شخصيّات روائيّة أو قصصيّة خياليّة.

* هل ذكر لك السبب في تضايقه و«نرفزته»؟ هل لأنّه يرفض أن يَعتبر القارئ ما يكتبه نقلاً ميكانيكيّاً للواقع؟

ـ أعتقدُ ذلك، وإنْ لم يقُله لي.

* المعلوم أنّ «غسان» كان أوّل من كتب عن أدب المقاومة الفلسطينيّة وذلك في كتابه **أدب المقاومة في فلسطين المحتلّة**. كيف تأتّى له الحصول على مقتطفات من ذلك الأدب؟

ـ كانت لغسّان علاقات واسعة بالصحفيّين الأجانب، وكانت ثقافته الواسعة عاملاً هامّاً في كسب ودّهم واحترامهم. وقد قال لي الدكتور نبيل شعث إنّه ـ أي شعث ـ حين كان مسؤولاً إعلاميّاً في «فتح» وكان غسّان مسؤولاً إعلاميّاً في الجبهة الشعبيّة، لم يستطع أيّ صحفي أجنبي أن «يضحك» على الثورة الفلسطينيّة! وأنا أذكر أنّ صحفيّاً زار «غسّان» وراح ينتقد تصرُّفات اليسار الفلسطيني زاعماً أنّها مناقضة لمبادئ ماوتسي تونغ. وكرّر انتقاداته، حتّى عيل غسّان صبراً، فأمره بالتزام الصدق وإلاّ أمر «الشباب» بطرده من مكتب **الهدف**! وقال له إنّ ماو لم يصرّح بما زعمه الصحفي الأجنبي، وإنّما صرّح بكيْت وكيْت.

وذات مرّة بعثوا إليه بصحفيّة أجنبيّة على قدر كبير من الجمال. وقالت له إنّها تريد رؤيته «على انفراد» من أجل إجراء مقابلة. فاعتراه الشكّ، وأمر «الشباب» بالبحث عن هويّتها، فتبيّن له أنّها اسرائيليّة. وقد استغلّتْ مقابلتها معه فقالت في صحيفة أجنبيّة إنّ «غسّان» يُشبه شباب «الكيبوتزيم» ـ أي شباب المزارع الجماعيّة الإسرائيليّة، وهم «الصفوة» حسب رأي الاسرائيليّين.

بعد هذا الاستطراد، أعود للإجابة على سؤالك. فقد التقى غسّان بإحدى الصحفيّات الأجنبيّات وطلب منها الذهاب إلى فلسطين، وأعطاها عناوين بيوتنا وعناوين بعض الناس من المقاومة ومن الحزب الشيوعي. فبدأت تلك الصحفيّة بإرسال صحف من الداخل لغسّان، ومن بينها صحيفة **الاتّحاد** الناطقة باسم الحزب الشيوعي. وهكذا اكتشف غسّان كلاًّ من محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما. ثمّ طلب غسّان من تلك الصحفيّة الاتّصال بأولئك الشعراء مباشرة والطلب منهم مدّها بقصائدهم، ففعلت، وأرسلت بها جميعها إليه. وفي أحد أعداد مجلّة **فلسطين** وضع غسّان قصيدة محمود درويش «سجّلْ أنا عربي» على الغلاف وبخط غسّان شخصيّاً. وقد ألقى غسّان قصائد لدرويش والقاسم في مهرجان للكتّاب العرب في غزة قبل وقوعها في يد الاحتلال؛ وكان يحفظ تلك القصائد غيباً.

غير أنّ «غسّان» توقّف عن الكتابة عن أدب المقاومة حين أُخضع هذا الأدب لسوق المتاجرة به. ويشاركه في ذلك الشعور محمود درويش نفسه. فأنا أذكر أنّه حين طلبنا من محمود أن يكتب مقدّمة لمجلّد غسّان المتعلّق بالدراسات السياسيّة الذي يتحدّث فيه غسّان كذلك عن أدب المقاومة، كتب محمود في المقدّمة: «أدب المقاومة: طُزْ!». قلت له: «يا محمود، غير معقول أن أنشر: طُـزْ!» لكنّه عاد وغيّر «الكلمة» حين راجعناه لاحقاً. غير أنّ شعور محمود كان مثل شعور غسّان في كثير من الأحيان. وقد نشر غسّان لكتّاب تبيّن لاحقاً أنّهم ليسوا شديدي الوطنيّة، ولآخرين لم يكونوا ذوي موهبة شعريّة خارقة.

* كيف كانت علاقة غسّان بناجي العلي؟

ـ كان ناجي فتىً في أوّل شبابه في مخيّم عين الحلوة، وكان غسّان يعمل مسؤولاً عن صفحة «القرّاء» في **الحريّة**. فأرسل ناجي إلى

غسَّان ذات يوم رسماً كاريكاتوريّاً يصوّر ناساً يسكنون في خيمة، وقد أشعلوا ناراً في داخلها ليطبخوا بها طعامهم؛ فلَهيبُ النار يتصاعد من رأس الخيمة راسماً في الهواء شكلَ بندقيّة. وقد نشر غسَّان رسمَ ناجي في **الحريّة**، وحثّه على مواصلة الرسم. وكتب ناجي عن هذه الحادثة في **السفير والطليعة** وأخبرني إيّاها عام ١٩٦٤ في الكويت، حين زرته بناءً على طلب من غسَّان.

* أنتقلُ الآن إلى بعض المسائل المتعلّقة بسيرة غسَّان الفكريّة والسياسيّة. كيف كان وقع انتقال «حركة القوميّين العرب» إلى الماركسيّة اللينينيّة في نفس غسَّان كنفاني؟

ـ كان غسَّان في الخمسينات قد كتب كتاباً عن الشيوعيّة، لكنه لم يهاجمها على غير طائل. لم يُنشر هذا الكتاب، ولا نعرف أين هو. أنا شخصيّاً استغربتُ أن أجد أشخاصاً قوميّين ولاشيوعيّين يتبنّوْن الماركسيّة فيما بعد، وهذا رأيي الشخصي.

وكان غسَّان معجباً بإنجازات ماوتسي تونغ. والصحفيّ شأن غسَّان لم يكن يُتاح له أن يرى أثناء زيارته للصين سوى الإنجازات التي يُريها له القادة هناك. ولا ننسَ أنَّ الصين كانت داعماً أساسيّاً للثورة الفلسطينيّة.

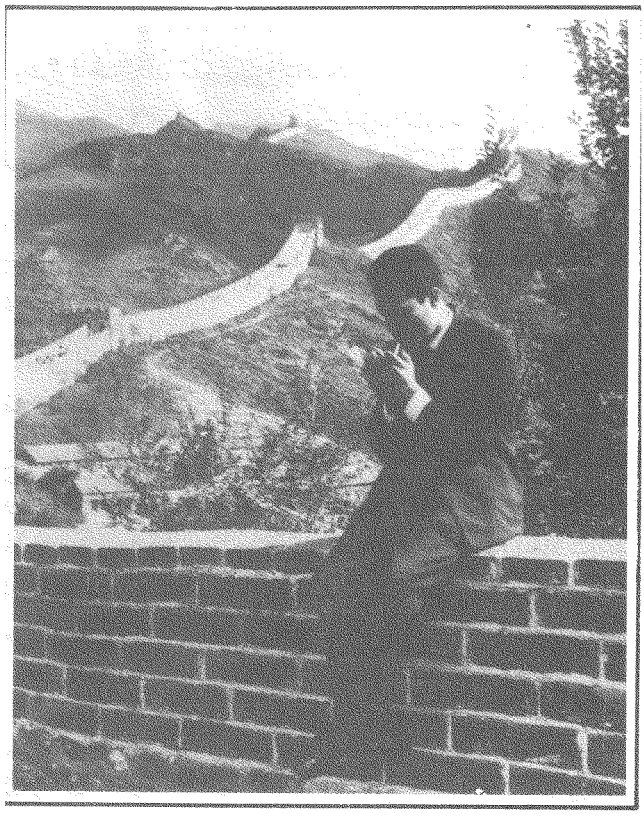

غسَّان في الصين (١٩٦٥)

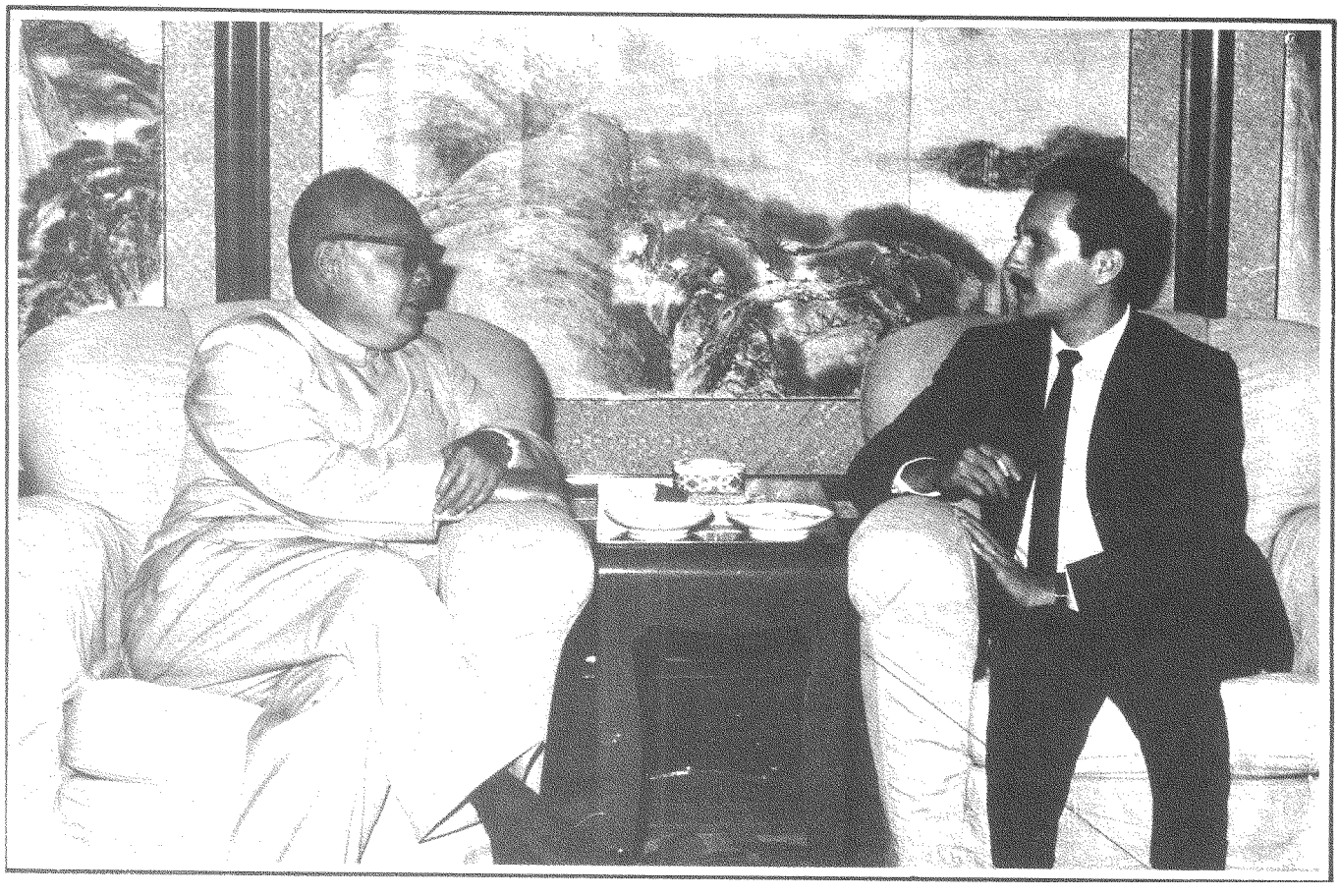

مع شن لي، وزير الخارجية الصينية (١٩٦٥)

* هل تحدّثتَ مع غسّان عن موقفه من اليهود، كجنس، كعرق؟ فالحال أنَّ ثمّة تمييزاً واضحاً في أدب غسّان بين اليهودي والصهيوني ولا سيّما من حيث تحميل الثاني دون الأوّل جريمة اغتصاب فلسطين، وإنْ كانَ في **عائد إلى حيفا** لم ينزع المسؤوليّة نزعاً مطلقاً عن المواطن اليهودي «المسالم» الموجود في فلسطين. هل استطعت أن ترى عند غسّان في مواقفه الشخصيّة مثل ذلك التمييز؟

ـ من المؤكّد أنَّ «غسّان»، قد قام بهذا التمييز. وفي فترة من الفترات عملت أنا وآني كنفاني مع غسّان على تجميع مقالات للكثير من اليهود الفرنسيّين والإنكليز، ولا سيّما تلك التي يتساءلون فيها عن مغزى أن يكون ولاؤهم لإسرائيل أقوى من ولائهم لفرنسا أو لانكلترا اللتين يعيشون فيهما. وطلبَ غسّان من «آني» ترجمة هذه المقالات ليتمّ نشرها في الدانمرك والسويد، وكنت أترجم بعض هذه المقالات إلى العربيّة.

إنَّ مفهوم غسّان لمبدأ التمييز ذاك ـ وهو مبدأ قد انعكس في **عائد إلى حيفا** كذلك ـ لم يأت عفويّاً، وإنّما نتيجة لنضال نظري استمرّ عشرين عاماً احتكَّ خلالها بالصحافة الأجنبيّة والأدب الصهيوني؛ والمعلوم أنَّ أوّل كتاب عن الأدب الصهيوني بالعربيّة كان كتاب غسّان. إذن لم تكن نظرته إلى الصهيونيّة نظرة عاطفيّة، رغم أنّ كثيراً ممّن عانوا معاناة غسّان قد كان من الممكن لهم أن يُغرقوا في موجة معاداة اليهود (التي يسمّيها الغرب «اللاّساميّة»، مع أنّنا ـ كعرب ـ ساميّون كذلك).

* خبّرنا عن الفترة التي سُجن غسّان فيها؟

ـ كنتُ أزوره كلّ يوم تقريباً. ولا بدّ أن أكون صريحاً هَهنا. فقد كان بإمكان ملحم كرم ـ نقيب المحرّرين ـ أن يؤجّل سجن غسّان بسبب إصابة هذا بداء المفاصل والسُّكّري. لكنّ الجوّ السياسي كان سيّئاً، وكان غسّان شديد القرف من هذا الجوّ. وسعى ملحم كرم ـ وهو صديق للمحرّرين أيّاً كان لونهم، وهذه شهادة له ـ إلى أن يقصر سجن غسان على يومين ينتقل بعدهما إلى مستشفى السجن، شرط ألاّ يُشاع أمر «الامتيازات» التي قُدِّمت لغسّان في السجن. وكان زوّاره مقتصرين عليّ وعلى آني وعلى زوجتي، وكان باب الغرفة يُغلق من ورائنا ما إن نلجها.

ولعلّ «آني» أخبرتك عن تلك الممرِّضة التي كانت تمرّ أمام بيت غسّان بعد استشهاده، وتبكي، دون أن تصعد إلى البيت. وقد علمتُ فيما بعد أنّها تحمل أفكاراً تقدميّة، وأنّ أخاها في الحزب الشيوعي اللبناني.

* ما كان موقف غسّان من جمال عبد الناصر؟

ـ كانت «حركة القوميّين العرب» من الحركات المؤيِّدة لعبد النّاصر. إلاّ أنَّ الخلاف بين الفريقيْن بدأ عام ١٩٦٩ بسبب قبول عبد الناصر بمشروع «روجرز». وفي تصوّري أنّه لم يكن بإمكان تنظيم تقدّمي ـ كالجبهة الشعبيّة ـ أن يوافق على مشروع صلح أو تسوية في وقت كان الصراع فيه ما يزال مستمرّاً مع العدو، وحين تكون راعيةَ هذا المشروع الولايات المتحدة صديقة اسرائيل والعدوّ الأكبر للعرب.

ولست في وارد نقاش الأسباب التي دعت عبد النّاصر إلى قبول مشروع «روجرز». ومحمد حسنين هيكل وأنور السادات يقدِّمان تبريرات لعبد النّاصر بهذا الشأن؛ ولا شكَّ في أنَّ البعض الآخر يؤمن بأنَّ عبد النّاصر قد كان في حاجة إلى الوقت لإعداد حرب منظّمة ضدّ العدوّ وأمريكا.

لكنْ حين مات عبد النّاصر، كنتُ أستمع إلى إذاعة لندن. وإذا بالإذاعة تقول إنَّ غسّان كنفاني كتب مقالة. كانت «يدي على قلبي»؛ فقد خفت أن يهاجم غسّان جمال عبد النّاصر، وهو الذي سارت الملايين في مأتمه.

وكنت سعيداً حين سمعت أنَّ المقالة تقول بأنْ لا أحد يستطيع أن يدّعي أنَّ شيئاً حدث في العالم العربي خلال حكم عبد النّاصر دون أن يكون له تأثير فيه. أحسستُ في موقف غسّان إكراماً لعبد النّاصر يفوق أقوال كُلّ المزمِّرين والمطبِّلين!

* ذكرت في حديث اعتراضيّ ـ لم أنشرْه ـ قبل قليل أنَّ «غسّان» قد تعرّض للضرب بسبب مواقفه من عبد النّاصر!

ـ كان غسّان يسهر خارج بيته حتّى الثانية أو الثالثة صباحاً. وكان هو وأصدقاؤه يقضون كثيراً من الأماسي في «الدولتشه ڤيتا» في الروشة؛ وبإمكانك أن تسأل الأستاذ منح الصلح عن تلك الأماسي. النتيجة... كان ثمّة تنظيم ناصري يؤلّه عبد النّاصر، وكان لغسّان اعتراض على مشروع روجرز. فرصده بعضُ شباب ذلك التنظيم وكان خارجاً من مقهى« السكوتش كلوب» في الروشة في الثانية صباحاً، وانهالوا عليه ضرباً. وجاءت الشرطة. وقرأتُ في الصباح الخبر، فهرعت إلى غسّان. قلت: «شو القصّة»؟ قال. «أكلنا علقة». سألته «مسكتهم الشرطة»؟ قال. «لأ. مسكتني أنا! وحقّقت معي في المخفر، ثمَّ خلّت سبيلي!».

* هل كانت علقة ساخنة؟

ـ إيه!

* كيف كانت قوّته الجسديَّة؟

ـ سأخبرك بقصّة لطيفة تعطيك فكرة عن قوّته هذه. حين كانت حركة القوميّين العرب معادية لتوجّهات النظام الأردني كتبَ غسّان

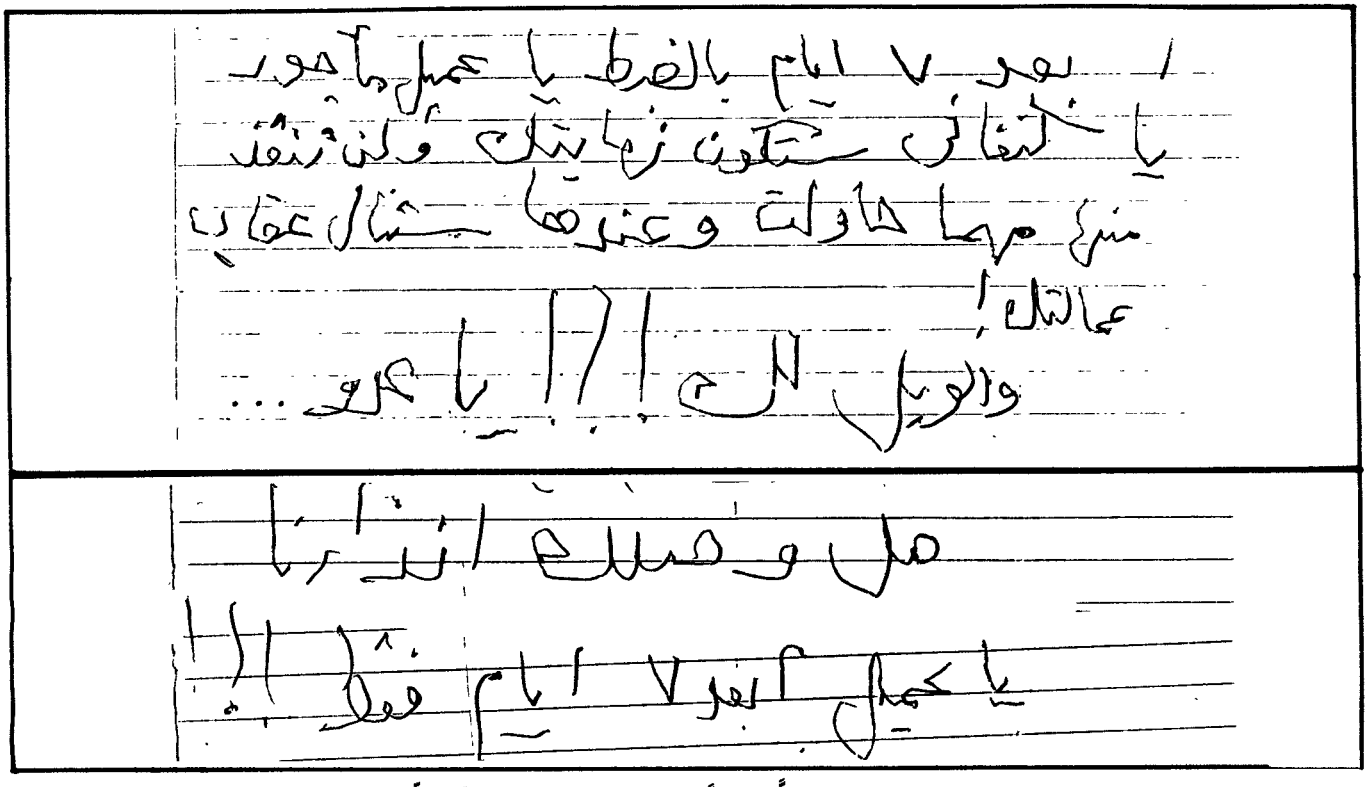

رسالتا تهديد تلقّاهما غسّان من عميلٍ نظامٍ عربيّ معيّن

بعض المقالات المعبّرة عن وجهة نظر «الحركة» في هذا الموضوع. وذات يوم في بيروت تلقّى اتّصالاً من مجهول يحمل إليه رسالة تهديد يقول فيها:

«ولا! أنا باعث لك باثنين أو ثلاثة رجال ليكسّروا رأسك إذا استمررت في الكتابة».

فردّ غسّان على المجهول: «لا تعذّب حالك! رجل واحد يكفي! أنا لا أستأهل أكثر!»

كان غسّان نحيلَ الجسم، مصاباً بالسُّكّري وبمئة مشكلة أُخرى! وكان يدخّن بشراهة. وعلى ذكر السُّكّري، كان يتناول حوالي خمسة غرامات من الأنسولين! وكان الصحفيُّون يستغربون إذ يرَوْن غسّان كنفاني يفتح درج مكتبه فجأة، فيتناول إبرةً ويشكّها في معدته قبل أن يعيدها إلى الدرج؛ لقد ظنّ بعض الصحفيّين أنّه مدمن على المخدّرات. ولم يصحّح غسّان معلوماتهم، إلى أن جحظت عينا أحد الصحفيّين الأجانب، وإذّاك فحسب شرح له غسّان أنّه مصاب بالسُّكّري!

* دأب الإعلام الاسرائيلي على الربط بين غسّان كنفاني وعمليّة اللّدّ والعمل العسكري بشكل عام.

ـ غسّان لم يكن عسكرياً قطّ. وأنا متأكّد مئة بالمئة أنّه لم يحضر اجتماعاً عسكرياً واحداً للجبهة الشعبيّة، رغم التزامه التّام بجميع ما يصدر عن القيادة.

غير أنَّ اسرائيل أرادت «تنفيس» مسألة خطف الطائرات. وكان غسّان يعرف أنّه مستهدف، وقال لي بالحرف الواحد: «أنا وليلى خالد مستهدفان».(1) وقد نُشرت صورة للقائد العسكري للجبهة الشعبيّة، وهو يشبه ـ من بعيد ـ غسّان كنفاني، وقال العدو إنّ هذه الصورة هي لغسّان كنفاني الذي يخطّط لعمليّات عسكريّة في الأغوار! وقد نقل غسّان الصورة ونشرها ـ ربّما في الهدف ـ وعلّق على المسألة.

وقبل يوم واحد من استشهاده، طلبتُ منه أن يتوخّى الحيطة والحذر. قال: «أنا رقم ٣ من بين المستهدَفين في الجبهة الشعبيّة». غير أن «غسّان» لم يُضف أنّه كان الوحيد الذي تُعرف أماكن وجوده وتنقّله. وقد أراد آنذاك ألاّ يبعث الاضطراب في نفس أخته فايزة التي جاءت في تمّوز من الكويت لقضاء عطلة الصيف، فلازم المنزل أسبوعاً كاملاً. وكان أن رُصد غسّان، واغتيل. وأذكر أنّه كان يقول: «إذا كان الاسرائيليُّون أذكياء، فإنَّ الأفضل لهم أن يغتالوني إمّا في سيّارتي، وإمّا في سريري» لأنَّ بيته على منحدر وغرفة نومه مكشوفة من بين أشجار الزيتون.

وكانت لي سيّارتان، فعرضتُ عليه واحدة منهما، حين علمتُ أنّه يحاول تغيير سيّارته تفادياً للاعتداءات. لكنّه رفض رفضاً قاطعاً، وقال: «لن أُعرّضك لأيّ خطر»! . أوَليس رفضهُ هذا موقفاً نبيلاً؟

(١) ليلى خالد مناضلة فلسطينيّة خطفتْ طائرة بوينغ أمريكيّة في ٢٩ آب ١٩٦٩.